الحياة والموت[1]

لا يبالغ الانسان اذا قال ان المسيو متشنيكوف اكبر ثقة في الطب اليوم . فقد كان في حياة الشهير باستور ساعده الايمن وهو اليوم خليفته في الاكتشافات الطبية التي احدثها تقريباً معمل باستور . فمن وظائف الليكوسيت الى اكتشاف مكروبات السفلس الى تعلب الشرايين الى كثير غيرها مما يدل على فضل هذا الرجل

ونريد هنا تلخيص كتابين له يفسر فيهما نظريتين عن الحياة والموت كان لهما دوي كبير في الدوائر العلمية ثم نتبعهما بآرائه في اطالة الحياة

١ اصلنا الحيواني

لا اظن ان قارئاً للقطف يشك للآن في اصل الانسان الحيواني ولذلك لا أرى داعياً لايراد ادلة داروين المتداولة على ذلك . بل آتي هنا على ادلة اخرى اوردها متشنيكوف هي غاية في البيان

فاول هذه الادلة عملية الترسيب في الطب الشرعي التي تدل على انما والقرود من عائلة واحدة . والعملية مبنية على حقيقة بيولوجية مفادها ان رواسب دم الحيوانات تتشابه او تتفارق بنسبة مشابهة الحيوانات او مفارقتها . فرواسب دم الانسان تختلف عن رواسب دم البقر ولكنها تشابه رواسب دم القرد . ورواسب دم البقر والجاموس تتشابه ايضاً مما يدل على قربهما في سلسلة النشوء . فالمحاكم اليوم تستعمل هذه العملية للتمييز بين دم الانسان والحيوان في حوادث القتل التي يشتبه فيها بين المتهمين وهذه المحاكم نفسها التي تؤيد بعملها هذا ما ينفي التقاليد القديمة تعاقب من يقول شيئاً ضد التقاليد القديمة

قال متشنيكوف وفي عواطفنا ومشاعرنا كثير مما يدل على اصلنا الحيواني . مثال ذلك وقوف الشعر وقت الخوف فنحن والحيوان سواء في هذه الصفة وقد كانت تفيدنا ونحن في دور الحيوانية اذ انها كانت تعطي الخائف هيئة ربما تغلب بها على مهاجمه . وما انكماش الجلد وتنفش الريش في الطير الا اشكال اخرى لهذه الصفة . ولو فحصت قوة الحواس وضعفها في الحيوان لرأيت اشتراكنا معه فالانسان والقرد يختلفان عن بقية الحيوانات بضعف حاسة الشم والسمع هذا قليل من كثير اكتفي به كتمهيد لموضوعنا وأشير على الراغب في التوسع بالكتاب نفسه

(1) The nature of man and the prolongation of life by Metchnikoff.

٢ الموت غير طبيعي في الانسان

اذا قلنا ان الجوع في الانسان طبيعي اردنا بذلك ان الطبيعة اوجدت الجوع كما اوجدت اليد او الرجل اي انهُ واسطة لحفظ الجسم وبدون الشعور بهِ يموت الفرد كما لو هاجمهُ حيوان واقتربهُ . فهل الموت على هذا القياس طبيعي ؟ اذا كان كذلك فلماذا لا نشعر برغبة فيهِ كما نشعر برغبة في الاكل ؟ حتى لو فرضنا ان الموت طبيعي لعمينا عن غرض الطبيعة منهُ اذ ما هو الداعي الذي يدعو الى خلق الحي ثم قتلهِ ؟

من الاحياء اليوم ما يعيش دائماً كبعض انواع البكتيريا وبعض النباتات والاحياء الدنية . فحشيش الجنائن اذا حش قبل الازهار عاش دواماً ولكن اذا ترك ليزهر مات بعد الازهار . يقول متشنيكوف ان موتهُ في هذه الحالة ناشئ عن سم ذاتي يتكون وقت الازهار . ثم اعتقد ان جميع الحيوانات تموت مقتولة بسم ذاتي ينشأ من الطعام وهو سبب موت الانسان

فالحيوانات ذوات القولون اي المعى الغليظ من الامعاء الذي تحفظ فيهِ بقايا الطعام اقصر عمراً من الحيوانات التي تعيش بدونهِ . فالغراب والببغاء والسحفاة يصير القولون فيها الى حد العدم واعمارها اطول من عمر الانسان . فطول العمر او قصرهُ يكون دائماً على نسبة قصر القولون او طولهِ . والقولون في الانسان هو احد الاعضاء الاثرية التي ورثها من الحيوانات حين كان يحتاج الى حفظ بقايا اكلهِ في جوفهِ وقت الجري او القتال وفي هضم النباتات الجامدة كالحبوب وغيرها . وهذا سبب فائدتهِ للفرس والبقرة لان امعاءها لا تقدر على هضم الفول والشعير فاذا وصلا الى القولون جزأتهما البكتيريا وسهلت عملية الهضم . ولكنها في هذا العمل تقتل الحيوان بما تطرحهُ في جسمهِ من السكين او السم . وفعلهُ في الاجسام فعل الكحول الذي هو في الحقيقة سم البكتيريا التي تخمر العنب او غيرهُ

فاذا فهمنا ذلك سهل علينا معرفة سبب طول حياة الغربان مثلاً . فاذا شرّحت الغراب وجدت ان قولونهُ صغير جداً حتى ان بقايا الاكل لا تبقى فيهِ وقتاً كافياً لتعفن اي لتحل بها مكروبات التعفن وتملأ الجسم من سمومها . وهذا على عكس الحالة في الانسان . فالقناة الهضمية تتكون من المعدة والمعى الدقيق والمعى الغليظ او القولون . فالمعدة اذا صرفنا النظر عن هضمها للمواد النشوية لا نرى لوجودها فائدة خصوصاً اذا تذكرنا استعدادها للامراض . والمعى الدقيق قادر على تأدية وظيفتها . ذكر متشنيكوف حادثة قطعت فيها المعدة واوصل المعى الدقيق بالمريء وعاش صاحبها . والقولون في الانسان ليس فقط عديم الفائدة بل هو مضر . ذكر المؤلف ايضاً حادثة قطع القولون فيها وشفي صاحبهُ . فالخلاصة ان المعى الدقيق قادر وحدهُ على القيام بالهضم

٣ كيف يموت الانسان

بعد هضم الاكل تطرح بقاياهُ في القولون وهو تربة صالحة للمكروبات وغيرها وهذه تنفث سمومها في الجسم فتقلل حيويتهُ شيئاً فشيئاً فينكمش القلب وتتصلب الشرايين وتصغر الكبد وينقلب البلكوسيت من صاحب الى عدو

والبلكوسيت (حويصلات الدم البيضاء) هي الاحياء التي تؤدي للجسم وظيفة الجيش للملكة . فاذا دخل مكروب في الجسم اجتمعت حولهُ فتعمل على قتلهِ او طردهِ او اكلهِ . واذا حدث جرح اجتمعت حولهُ وضمت اطراف الجلد ووقفت كحارس امين تمنع دخول المكروب فيهِ . فهذه الاحياء على فائدتها للجسم في دور الشباب تنقلب الى عدو ألد في دور الشيخوخة . وذلك لان السموم التي تطرحها مكروبات القولون في الجسم لا تؤثر في البلكوسيت ولو اضعفت باقي اعضاء الجسم . فاذا قل الغذاء في الدم بسبب هذه السموم انقلبت البلكوسيت واكلت الاعضاء فتبتدئ بأكل صبغة الشعر والاعصاب وهذا سبب الشيب والخرف في الشيخوخة . فاذا تراكم السم هبطت القوة العصبية وتصلبت الشرايين وخمد الجسم الى ان يموت

٤ كيف نصحح الطبيعة ؟

اذا لم يمكنا قطع القولون يجب ان نهتدي الى طريقة نمنع بها التعفن فيهِ . فالغذاء النباتي مثلاً اقل استعداداً للتعفن من اللحم ولكنهُ اصعب هضماً منهُ . كذلك لو أُحسن مضغ الطعام قل الباقي النازل الى القولون وبالتالي قل التعفن . واتباع فلشر في اميركا الذين يجيدون مضغ الطعام الى ان يصير سائلاً تاماً لا يفرغون امعاءهم الاَّ مرة كل اسبوع او عشرة ايام . ولكن هذه الطريقة تضعف المعدة وترخي اعصابها لقلة العمل . كذلك غسل القولون بالماء او غيرهِ يضعفهُ ويوقف قابليتهُ للانقباض

اما الدواء الذي يصفهُ متشنيكوف ضد الشيخوخة فهو دواء شرقي عثر عليهِ وهو في البلقان ويسمى هناك باليغورت وتسميهِ في مصر باللبن الزائب او الزبادي . فان هذا اللبن يحوي كثيراً من البكتيريا التي تقاوم مكروبات التعفن ولا تضر بالجسم . فاذا وصلت الى القولون استوطنت هناك وحاربت المكروبات المضرة فقللت اضرارها . واذا واظب الانسان على اخذها في كل اكلهِ واضاف الى ذلك الاحتراس من الامراض وعدم الافراط في الحياة تأخر الاجل من السبعين الى المائة او المائة والعشرين هذا مع التمتع بشيخوخة خالية من عيوبها المعروفة

لندن سلامه موسى